

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها - قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته. أخرجاه (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ بِرَحْمَتِهِ عَمَلَيْكَ وَهُدًى صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيُصْرِكَ اللَّهُ بِكَ عَدُوِّيكَ وَيَضْحِكُكَ اللَّهُ وَيُجْزِلُ اللَّهُ أَعْيُنَهُمْ فَذَرْهُمْ وَأَمْرِ قَدْحًا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقتضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكوره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، كما سيأتى تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وقال جابر: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية.

وروى البخارى عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بشر. فتزحنا فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا (٢). وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألت عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد على، قال: فقلت لنفسى: ثكلتك أمك يا بن الخطاب، نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادى: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت على البارحة سورة هي أحب إلى من الدنيا وما فيها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾». ورواه البخارى، والترمذى، والنسائى (٣)، وقال على بن المدينى: هذا إسناد مدينى جيد لم نجده إلا عندهم. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت على

(١) المسند (٢٤/٥) والبخارى (٤٨٣٥) ومسلم (٢٣٧/٧٩٤).

(٢) البخارى (٤١٥٠).

(٣) المسند (٢٠٩) والبخارى (٤٨٣٣) والترمذى (٣٢٦٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٩٩).

آية أحب إلى مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئا مرينا يا نبي الله، لقد بين الله عز وجل، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٌ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، أخرجاه في الصحيحين (١). وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال: لما أقبلنا من الحديبية أمرنا فتمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا». فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك من نام أو نسي». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبناها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا قَدَحْنَا لَكَ فَحَا مِيْنَا﴾. وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائي (٢). وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ يصلى حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود (٣). وروى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تصطر رجلاه. فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟». أخرجه مسلم (٤).

فقوله: ﴿إِنَّا قَدَحْنَا لَكَ فَحَا مِيْنَا﴾ أى: بينا ظاهراً، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: هذا من خصائصه ﷺ - التى لا يشاركه فيها غيره. وليس فى حديث صحيح فى ثواب الاعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، رسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأمره ونواهي، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمان الله إلا أجبتهم إليها» (٥). فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا قَدَحْنَا لَكَ فَحَا مِيْنَا. لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِمَنْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، «وبهديك صراطاً مستقيماً» أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، «وبنصرك الله نصراً عزيزاً» أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (٦). وعن عمر بن الخطاب أنه قال: ما عاقبت - أى فى الدنيا والآخرة - أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

(١) المسند (١٩٧/٣) والبخارى (٤١٤٨) ومسلم (٩٧/١٧٨٦).

(٢) ابن جرير فى التفسير (٤٣/٢٦) والمسند (٤٤٢١) وأبو داود (٤٤٧) والنسائي فى الكبرى (٨٨٥٣). وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٣) المسند (٥٥/٤) والبخارى (٤٨٣٦) ومسلم (٧٩/٢٨١٩) والترمذى (٤١٢) وابن ماجه (١٤١٩).

(٤) المسند (١١٥/٦) ومسلم (٨١/٢٨٢٠).

(٦) مسلم (٦٩ / ٢٥٨٨).

(٥) البخارى (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢).

[النساء: ٨٠]، ﴿يَهْدِ اللَّهُ لِقُورِهِمْ﴾ أى: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبيع بواسطة رسوله ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَفَا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَشِرُوا بِحُكْمِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أى: إنما يعود ويبال ذلك على الناكث، والله غنى عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسْتَوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلا. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قیل: ألف وثلاثمائة. وقيل: وأربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصح.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك :

روى البخارى عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة. ورواه مسلم (١). وأخرجه عن جابر قال: كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فبقي الماء من بين أصابعه، حتى رويوا كلهم (٢). وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته، فوضعه في بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا (٣). وفي رواية في الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٤). وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة. قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٥). قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة. الذى رواه البيهقي عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة (٦). وكذلك هو في رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير. وقد أخرج صاحب الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين (٧).

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة :

قال ابن إسحاق: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة ليلغ عنه أشرف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشا على نفسي، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب من يمنى، وقد عرفت قريش عداوتى لإياها، وغلطتى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان ابن عفان، فبعته إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء رائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة. فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو

(١) البخارى (٤٨٤٠) ومسلم (٦٧/١٨٥٦).

(٢) البخارى (٥٦٣٩).

(٣) البخارى (٤١٥٣).

(٤) البخارى (٤١٥٥) ومسلم (٧٥/١٨٥٧) وعنده: ألفا وثلاثمائة.

(٥) البخارى (٤١٥٥) ومسلم (٧٥/١٨٥٧) وعنده: ألفا وثلاثمائة.

(٦) البخارى (٤١٥٥) ومسلم (٧٥/١٨٥٧) وعنده: ألفا وثلاثمائة.

(٧) البخارى (٤١٥٥) ومسلم (٧٥/١٨٥٧) وعنده: ألفا وثلاثمائة.

قبل أن يدخلها ، فحملة بين يديه ، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة . فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ، ولكن بايعنا على الأ نفر . فبايع الناس ، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجند بن قيس أخو بني سلمة ، فكان جابر يقول : والله لكانى أنظر إليه لاصفاً يابط ناقته ، قد ضبا إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل (١) .

وروى البخارى عن نافع ، قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر ، وليس كذلك ، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه ، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة ، وعمر لا يدري بذلك ، فبايعه عبد الله ، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر ، وعمر يستلم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة ، فانطلق ، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر . ثم روى البخارى عن ابن عمر ، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر ، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال - يعنى عمر - : يا عبد الله ، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ . فوجدهم يبايعون ، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع (٢) . وعن جابر ، قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه ، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة ، وقال : بايعناه على الأ نفر ، ولم نبايعه على الموت . رواه مسلم ، عن قتية ، عنه (٣) . وروى مسلم عن معقل بن يسار ، قال : لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس ، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على الأ نفر (٤) . وروى البخارى عن يزيد بن أبى عبيد ، عن سلمة بن الأكوع ، قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة . قال يزيد : قلت : يا أبا مسلم ، على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت (٥) . وروى البخارى أيضا عن سلمة ، قال : بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت ، فقال : « يا سلمة ، ألا تبايع ؟ » قلت : بايعت ، قال : « أقبل فبايع » . فدنوت فبايعته . قلت : علام بايعته يا سلمة ؟ قال : على الموت . وأخرجه مسلم (٦) . وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم ، أنهم بايعوه على الموت (٧) .

وروى البيهقى عن سلمة بن الأكوع قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة

(١) سيرة ابن هشام (٢٦١ / ٣٠ ، ٢٦٢) .
 (٢) مسلم (٦٧ / ١٨٥٦) .
 (٣) مسلم (٧٦ / ١٨٥٨) .
 (٤) البخارى (٢٩٦٠) .
 (٥) مسلم (٨٠ / ١٨٦٠) .
 (٦) البخارى (٢٩٥٩) .

مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويهما، فقعده رسول الله ﷺ على جباها - يعنى الركى - فإما دعا وإما بصق فيها، فجاثت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة . فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ : «بايعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأبضا». قال: ورأتى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حجلة - أو درقة - ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ : «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأبضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيتها إياه. فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، أسقى فرسه وأحسه وأكل من طعامه، وتركت أعلى ومالى مهاجرا إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكةا، ثم اضطجعت فى أصلها فى ظلها، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة، فجمعوا يقومون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم، ونحوت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، بينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين، قتل ابن زيم. فاخترطت سيفى، فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضنئا فى يدى، ثم قلت: والذى كرم وجه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه، قال: ثم جثت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمى عامر برجل من العيلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم يده الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية [الفتح: ٢٤] . وهكذا رواه مسلم بنحوه، أو قريبا منه (١).

وثبت فى الصحيحين عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبى ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفى علينا مكانها، فإن كان تبئت لكم، فأنتم أعلم (٢). وروى أبو بكر الحميدى عن جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجلنا رجلا منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئا تحت إبط بعيره. روى الحميدى أيضا عن عمرو، سمع جابرا، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر لآريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا فى موضعها. أخرجاه (٤). وعن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية، ثنية المزار، فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بنى الخزرج، ثم تبادل الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن

(١) البيهقى فى الدلائل (١٣٨/٤) ومسلم (١٨٠٧/١٣٢) .

(٢) البخارى (٤١٦٤) ومسلم (٧٧/١٨٥٩) .

(٣) الحميدى فى السند (٥٣٧/٢) ومسلم (٦٩/١٨٥٦) .

(٤) الحميدى فى السند (٥١٤/٢) والبخارى (٤١٥٤) ومسلم (٧١/١٨٥٦) .

اجد ضالتي أحب إلى من أن يستغفر لي صاحبكم . فإذا هو رجل ينشد ضالة . رواه مسلم (١) . وعن أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحدا». قالت: بلى يا رسول الله . فاتبرها ، فقالت لحفصة: ﴿ وَإِنْ ضَمَكُمُ الْإِلَٰهُ وَأَرَدَهَا ﴾ [مريم: ٧١] ، فقال النبي ﷺ: «قد قال الله: ﴿لَمْ نُنَجِّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آلِهَتًا مِثْلَ مَا اتَّخَذَ الْبَشَرُ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [مريم: ٧٢] ، رواه مسلم (٢) . وفيه أيضا عن جابر: أن عبدا لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية» (٣) .

ولهذا قال تعالى في الشاء عليهم: ﴿ إِنْ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَوْفَىٰ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] ، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبَّتْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ لَنْ تَسُوءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بِرُءُوسِهِمْ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبرا رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الاعراب الذين اختاروا المقام في اعليهم وشغلهم، وتركوا السير مع رسول الله ﷺ ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِآلِسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا ﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما اراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسر اتركم وضمائركم، وإن صانتمونا وتابعتمونا؛ ولهذا قال: ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ . ثم قال: ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاصر، بل تخلف نفاق، ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أى: اعتدتم انهم يقتلون وتتأصل شائتهم، وتباعد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بِرُءُوسِهِمْ ﴾ أى: هلكى . قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد . وقال قتادة: فاسدين .

ثم قال: ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الآية، أى: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الامر . ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في اهل السموات والارض: ﴿ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى: لمن تاب إليه واتاب، وخضع لديه .

(٣) مسلم (٢٤٩٤/١٦١) .

(٢) مسلم (٢٤٩٦/١٦٣) .

(١) مسلم (٢٧٨٠/١٢) .

﴿ سَيُؤَلِّمُ الْمَخْلُوفَاتِ إِذَا أَطْلَقْتُمْ إِلَيْكَ مَقَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُورًا نَتَّبِعْكُمْ بِرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَيَسْمِئُونَ بِلِ تَحْمُدُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يقول تعالى محبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيريفتحوها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المقنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجاللتهم ومصابتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا ياذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمقاتم خير وجدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً وقلداً، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير. وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ يعني: بشيطهم المسلمين عن الجهاد.

﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَيَسْمِئُونَ بِلِ تَحْمُدُونَهَا﴾ أي: أن تشرككم في الغنم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ آوَلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَصِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن. عن سعيد بن جبير أو عكرمة، أو جميعاً، وبه يقول قتادة في رواية عنه. الثاني: ثقيف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جويري والزهرى. الرابع: هم أهل فارس. عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة. وعن ابن أبي ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صفار الأعين، ذلف الأنوف، كان وجوههم المجان المطرقة». قال سفيان: هم الترك^(١).

وقوله: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ يعني: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصر عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار ﴿فإن تطيعوا﴾ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه، ﴿يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تولَّوْا كما تولَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر الأعداء في ترك الجهاد، فمنها لازم

(١) البخارى (٢٩٢٨ ، ٢٩٢٩) بنحوه .

كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمريض الذى يطرا اياما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الاعذار اللازمة حتى يبرأ: ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّأْ ﴾ أى: يتكلل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿ يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فى الدنيا بالمدلة، وفى الآخرة بالنار.

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بارض الحديبية. روى البخارى عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاججا فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن اصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها انتم، فانتم اعلم (١).

وقوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أى: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ وهى الطمأنينة، ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر التصل بفتح خبير وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ. وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَنَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبِرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ لِيَا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قال مجاهد فى قوله: ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾: هى جميع المغانم إلى اليوم، ﴿ فَجَعَلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ أى: فتح خبير. وعن ابن عباس: ﴿ فَجَعَلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ أى: صلح الحديبية. ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أى: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم اضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدى الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخير فى ما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر، كما قال: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى: بسبب اتقيادكم لأمره

وإتباعكم طاعته، وموافقكم رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: وغنيمة أخرى وقتها آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسُرُّها الله عليكم ، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون. وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال ابن عباس: هي خيبر. وهذا على قوله في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾: إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي ليلي، والحسن البصري: هي فارس والروم. وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَلَوْ فَاتَكُمْ الَّذِينَ ظَفَرُوا لَوَكُوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِثْرًا وَلَا نَصِيرًا﴾: يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهمز جيش الكفار فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لانهم محاربون لله ولرسوله ولجزبه المؤمنين. ثم قال: ﴿سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَكَانَ تَجْدِيسُ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائهم من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُددهم، وكثرة المشركين وعُددهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كفف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيرة للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدن غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا - قال عفان: فعفا عنهم - ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾. ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (١). وروى أحمد عن عبد الله بن مفضل المزني قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلى بن أبي طالب. وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما تعرف الرحمن الرحيم. اكتب في قضيتنا ما تعرف. قال: «اكتب باسمك اللهم»، وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما تعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله». فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو: هل جعل لكم أحد أمانا؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فانزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ

(١) المسند (١٢٢/٣) ومسلم (١٣٣/١٨٠٨) وأبو داود (٢٦٨٨) والترمذي (٢٢٦٤) والنسائي في الكبرى (١١٥١٠).

عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾ . رواه النسائي (١) .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَلْعَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُمَ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عَلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَسَاءٍ لَوْ تَزَيَّلُوا لَمَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلْنَا اللَّهُ سَكِينَةً عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالا هم على نصرتهم على رسول الله ﷺ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : هم الكفار دون غيرهم ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله في نفس الأمر ، ﴿ وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ ﴾ أي : وصدوا الهدى أن يصل إلى محله ، وهذا من بغيتهم وعنادهم .

وقوله ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ أي : بين أظهرهم ممن يكتن إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفتانهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ؛ ولهذا قال : ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُمَ مَعْرَةٌ ﴾ أي : إثم وغرامة ﴿ بِغَيْرِ عَلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَسَاءٍ ﴾ أي : يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام . ثم قال تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أي : لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿ لَمَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي : لسلطناكم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعا . روى الطبراني : عن جنيد بن سبغ قال : قتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفيما نزلت : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ . قال : كنا تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتين (٢) . وعن ابن عباس : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَمَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين ، لمذنبهم الله عذابا أليما يقتلهم إياهم .

وقوله ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ : وذلك حين أبوا أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وأبوا أن يكتبوا : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، ﴿ فَأَنْزَلْنَا اللَّهُ سَكِينَةً عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾ ، وهي قول : « لا إله إلا الله » . وقال مجاهد : ﴿ كَلِمَةُ التَّقْوَىٰ ﴾ : الإخلاص ، وقال عطاء بن أبي رباح : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . وقال علي : لا إله إلا الله ، والله أكبر . وكذا قال ابن عمر ، رضى الله عنهما . وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهي رأس كل تقوى . وقال سعيد بن جبير : لا إله إلا الله ، والجهاد في سبيله . وقال عطاء الخراساني : هي : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وقال الزهري : بسم الله الرحمن الرحيم . وقال قتادة : لا إله إلا الله .

(١) المسند (٨٦/٤) والنسائي في الكبرى (١١٥١١) . وقال الهيثمي في الزوائد (١٤٥/٦) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .
(٢) الطبراني في المعجم الكبير (٢٩٠/٢) ، وقال الهيثمي في الزوائد (١١٠/٧) : « رواه الطبراني بإسنادين رجال أحمدما ثقات » .

﴿ وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا ﴾ : كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى : هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر. وقد روى النسائي عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ النَّمِيمَةَ حِمِيَّةً الْجَاهِلِيَّةَ ﴾ [الفتح: ٢٦] ، ولو حبيتكم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أنى كنت ادخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى بما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرا وعلم بما علمك الله ورسوله (١) .

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح :

روى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر الناس؟ فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وهم وافرور، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدكم على الذى بعثى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه الساقفة». ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المزار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأته خيل قريش قترت الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا وارجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المزار، بركت ناقته، فقال الناس: خللات. فقال رسول الله ﷺ: «ما خللات، وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل فى قلب من تلك القلب، ففرره فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بطن. فلما اطمان رسول الله ﷺ، إذا بدليل بن ورقاء فى رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشز بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء راتراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتمهمهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: وكانت خزاعة فى عيبة نصح لرسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص، أحد بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ، فبعثوا إليه الخليس بن علقمة الكنانى، وهو يومئذ سيد الاحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم

(١) النسائي فى الكبرى (١/١١٥٠٥) .

يتألهون، فابعثوا الهدى»، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلاته قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صدّه، الهدى فى قلاته قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابى لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقى منكم من تبثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم إلى والد وأنا ولد، وقد سمعت بالذى نابكم، فجمعت من اطاعنى من قومي، ثم جئت حتى آسيكم بنفسى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فمخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم ليضتلك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. قال: وأبو بكر قاعد. خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظفر اللات! نحن نكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبى قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأنتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ بالحديد، قال: ففرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل - والله - لا تصل إليك.. قال: ويحك! ما أفطعت وأغلظك! فبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سواتك إلا بالأمس؟! قال: فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. قال: فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه، ولا يصبق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إني جئت كسرى فى ملكه، وجئت قيصر والنجاشى فى ملكهما، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعى إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليعته إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسى، وليس بها من بنى عدى أحد يمينى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعته إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت للحرب أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وورده خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماة قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت تطوف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثنى الزهرى: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: انت محمداً فصالحه ولا تكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فاتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى

إلى رسول الله ﷺ تكلموا واطالوا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال أبو بكر: ألزم غرزه حيث كان، فإني أشهد أنه رسول الله. فقال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني». ثم قال عمر: ملازلت أصوم وأصلي وأنصدق واعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل بن عمرو: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتوالت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتوالت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنت ترجع عنا عامتا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب. فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رأها رسول الله ﷺ، فلما راوا ما راوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع أبي جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فلما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدنى قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، انحروا واحلفوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد يمثلها فما قام رجل، ثم عاد ﷺ يمثلها، فما قام رجل. فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تكلمن منهم إنسانا، واعمد إلى هديك حيث كان فانحروا

واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى إذا أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه البخارى في صحيحه، فساقه بسياقة حسنة مطولة بزيادات جيلة، فروى في كتاب الشروط من صحيحه عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قال: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعت عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جمعوا لك وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس على، أترون أن نميل على عيالهم، وذريار هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟»، وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذريار هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عناقاً من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفي لفظ: «فإن قمدا قمدا موتورين مجهودين محروبين وإن نجوا يكن عناقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفي لفظ: فقال أبو بكر: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نحى لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن»، وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيبل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقرّة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خللات القصواء، خللات القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خللات القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمت الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم رجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على نمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نحى لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذن الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نمرضه عليكم فعلننا، فقال سقهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشئ. وقال: دور الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام

عروة بن مسعود فقال: أي قوم، أستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تهموني؟ قالوا: لا. قال: أستم تعلمون أنني استنذرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جنتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة. قالوا: آتة. فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ له: نحوا من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرايت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوها، وإني لأرى أشواجا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر: امصص بظن اللات! نحن نفر وندعه! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أموى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، ألت أسمى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضع كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه، تعظيما له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت هلى كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضع كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آتة. فقالوا: آتة، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال النبي ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له» فبعثت له، واستقبله الناس يبسون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُذت وأشعرت، فما أرى أن يُصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: «مكرز بن حفص»، فقال: دعوني آتة. فقالوا: آتة. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. وقال معمر: اخبرني أيوب، عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهّل لكم من أمركم».

قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابا، فدعا النبي ﷺ بعلی وقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «بإسْمِكَ اللَّهُمَّ»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: بإسْمِكَ اللَّهُمَّ». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني».

اكتب: محمد بن عبد الله « قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها». فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فتطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا اخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسفُ في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردَّه إلى، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذا لا أصلحك على شيء أبدا. فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أردت إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذبَ عذاباً شديداً في الله عز وجل، قال عمر: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: أأنت نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: أأنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم تعطى الدنيا في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصرى»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرت أنك أتيت العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك أتيت ومطوفٌ به» قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: أأنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم تعطى الدنيا في ديننا إذا؟ قال: أبها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بعرَّه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: فأخبرك أنك أتيت العام؟ قلت: لا. قال: فإنك أتيت وتطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبي الله، أتعجب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما راوا ذلك قاموا فانحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نساء مؤمنات، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ ﴾ حتى بلغ: ﴿بَعْضُ الْكُوفَرِ﴾ [المتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاهه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستلته الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا دُعراً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإنى لمقتول. فجاه أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم لحاني الله منهم،

فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعراً حرباً لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عز وجل: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ» حتى بلغ: «حِمَى الْمُحَاطَةِ»، وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه رسول الله، ولم يقرؤا بيسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. وهكذا ساقه البخاري هاهنا، وقد أخرجه في التفسير، وفي عمرة الحديدية، وفي الحج، وغير ذلك (١) ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، عن مروان والسور، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك (٢). وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وروى البخاري في التفسير عن حبيب بن أبي ثابت، قال: آتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال علي بن أبي طالب: نعم. فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديدية - يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاه عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلتنا في الجنة وقتلناهم في النار؟ فقال: «بلى». قال: فقيم نعطي الدنيا في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا بن الخطاب، أتى رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً»، فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع آخر ومسلم والنسائي، وفي بعض الفاظه: «يا أيها الناس، اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لردته»، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه (٣).

وروى الإمام أحمد عن أنس، أن قريشا صالحوا النبي ﷺ، فبهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب: «باسمك اللهم». فقال ﷺ: «اكتب: من محمد رسول الله». قال: لو تعلم أنك رسول الله لاتبعتك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددنوه علينا، فقال: يا رسول الله، أتكذب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله». ورواه مسلم (١). وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحزورية اعزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ

(١) المسند (٤/٣٢٣) البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٤١٨٠).

(٢) البخاري (٣١٨١، ٣١٨٢، ٤١٨٩، ٤٨٤٤، ٧٣٠٨) ومسلم (٩٤/١٧٨٥) والنسائي في الكبرى (٤/١١٥٠).

(٣) المسند (٣/٢٦٨) ومسلم (٩٣/١٧٨٤).

يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي: «اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو تعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «اصح يا علي، اللهم إنك تعلم أنني رسولك، اصح يا علي، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاء من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. ورواه أبو داود بنحوه (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها (٢).

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَائِمَتٍ مُحْلِفِينَ رُوهُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢﴾ ﴾

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنصر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عنهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا ستأتي البيت ونظوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرت أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال: «فإنك أتته ومظوف به». وبهذا أجاب الصديق، أيضا حذو القذة بالقذة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ : هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء. وقوله: ﴿مَائِمَتٍ﴾ أي: في حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحْلِفِينَ رُوهُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدر؛ لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة (٣).

وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة في المعنى، فائت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجاجة سمك بن خرسة، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه

(١) المسند (٣١٨٧) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح» وأبو داود (٤٠٣٧).

(٢) المسند (٢٨٨٢) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده حسن».

(٣) البخاري (١٧٢٧) ومسلم (٣١٨/١٣٠١).

الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد ابن مسلمة بالخيال والسلاح امامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمن الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ و إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته البصواء التى كان راكبا يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى أخذ بزمام ناقته رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينه	باسم الذى محمدُ رسوله
خلُّوا بنى الكُفَّارِ عَن سَبِيلِهِ	السيوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله	ضربنا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل على خليله	قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صُحف تُتلى على رسوله	بأن خير السقتل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقبيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مر الظهران فى عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا تقول: ما يتباعثون من العجف. فقال أصحابه: لو انتحرننا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحسونا من مرقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جمامة. قال ﷺ: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لى من أزوادكم». فجمعوا له ووسطوا الانطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم فى جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطجع برداته، ثم قال: «لا يرى القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رمل، حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشى أما إنكم لتتقرؤن نقر الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سنة. قال أبو الطفيل: فأخبرنى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى حجة الوداع (١). وروى أحمد أيضا عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهتهم حتى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهتهم حتى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر

(١) المسند (٢٧٨٢) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

رسول الله ﷺ. أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركبتين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجاه في الصحيحين (١). وفي لفظ: قدم النبي ﷺ. وأصحابه صبيحة رابعة، أى من ذى القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

وروى البخارى عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لعامة الذى استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قبيقمان (٢). وعن ابن عباس قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته (٣). ورواه مسلم والنسائي، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به (٤). وروى أيضا عن ابن أبى أوفى قال: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم: أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخارى دون مسلم (٥). وروى البخارى أيضا عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا، أمره أن يخرج فخرج. وهو فى صحيح مسلم (٦). وروى البخارى أيضا عن البراء، قال: اعتمر النبي ﷺ فى ذى القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلى بن أبى طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف فى القراب، والا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، والا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم، فتناولها على فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد وجعفر، فقال على: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، ففضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الحالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه (٧).

(١) المسند (٨٦٨٦) والبخارى (٤٢٥٦) ومسلم (١٢٦٦/٢٤٠).

(٢) فى المطبوعة حرفت إلى: «قبيقمان».

(٣) البخارى (٤٢٥٧).

(٤) البخارى (١٦٤٩، ٤٢٥٦) ومسلم (١٢٦٦/٢٤٠) والنسائي فى الكبرى (٣٩٧٣).

(٥) البخارى (٥٢٥٥).

(٦) البخارى (٤٢٥٢) ولم يعزه صاحب التحفة (١٩٣/٦) إلا للبخارى.

(٧) البخارى (٤٢٥١).

وقوله: ﴿فَلِمَ مَا نَمُ تَعْلَمُوا فَبَجَلٍ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ أى: فعلم الله تعالى من الحيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه انتم ، ﴿فَبَجَلٍ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أى: قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ ، ﴿فَتَحًا قَرِيبًا﴾: وهو الصلح الذى كان بينكم وبين اعدائكم من المشركين. ثم قال تعالى ، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه على عدوه وعلى سائر اهل الارض : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى : بالعلم النافع والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعى صحيح ، والعمل الشرعى مقبول ، فأخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ، ﴿بِالْهُدَىٰ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى : على اهل جميع الاديان من سائر اهل الارض ، من عرب وعجم ، وملين ومشركين ، ﴿وَكَلَّمْنَا بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: أنه رسوله ، وهو ناصره .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَيْدِيَهُمْ أَيْدِيَةٌ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَةٌ بَيْنَهُمْ تَرْتَنِّمُ رَبَّنَهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَتَتَوَنُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِجٍ أَخْرَجَ سَطَكُهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَفَلَطَ فَااسْتَوَىٰ عَلَى سُوْقِهِ يَجْعَلُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَقْفَرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَيْدِيَهُمْ أَيْدِيَةٌ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا صنيفا على الكفار، رحيمًا برأ بالاخيار، غضوبًا عروسًا فى وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا فى وجه اخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿بِهَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبى ﷺ: « مثل المؤمن فى توادمه وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهره^(١) ، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه^(٢). كلا الحديثين فى الصحيح .

وقوله: ﴿ تَرْتَنِّمُ رَبَّنَهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَتَتَوَنُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهى خير الاعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز وجل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الاول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾: السمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعنى: الخشوع والتواضع. وقال السدى: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار. وقال بعضهم: إن للحننة نورا فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس. وقال امير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداه الله على صفحات وجهه، وقلنت لسانه والغرض: أن الشئ الكامن فى النفس يظهر على صفحات الوجه، فالؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى

(٢) البخارى (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥ / ٦٥) .

(١) البخارى (٦٠١١) ومسلم (٦٦ / ٢٥٨٦) .

عن عمر بن الخطاب، أنه قال: من أصلح سيرته أصلح الله علاقته. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كأننا ما كان» (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النخعي، عن زهير، به (٢).

فالصحابة رضى الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديبهم. وقال مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هانئا: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾، ثم قال: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ أى: فراخه، ﴿ فَأَزْرَهُ ﴾ أى: شده ﴿ فاستنطق ﴾ أى: شب وطال، ﴿ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ أى: فكذلك أصحاب محمد ﷺ أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطه مع الزرع، ﴿ ليغضب بهم الكفار ﴾. ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يبغضونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافق طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساء كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

ثم قال: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ ﴾ «من» هذه لبيان الجنس ﴿ مَغْفِرَةً ﴾ أى: لذنوبهم ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى: نوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتضى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس ماوهم، وقد فعل. وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبيا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» (٣).

(١) المسند (٢٨١٣)، وقال الهيثمي في الزوائد (١٠/٢٨٨): «إسناده حسن».

(٢) المسند (٢٦٩٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، وأبو داود (٤٧٧٦).

(٣) مسلم (٢٥٤٠/٢٢١).